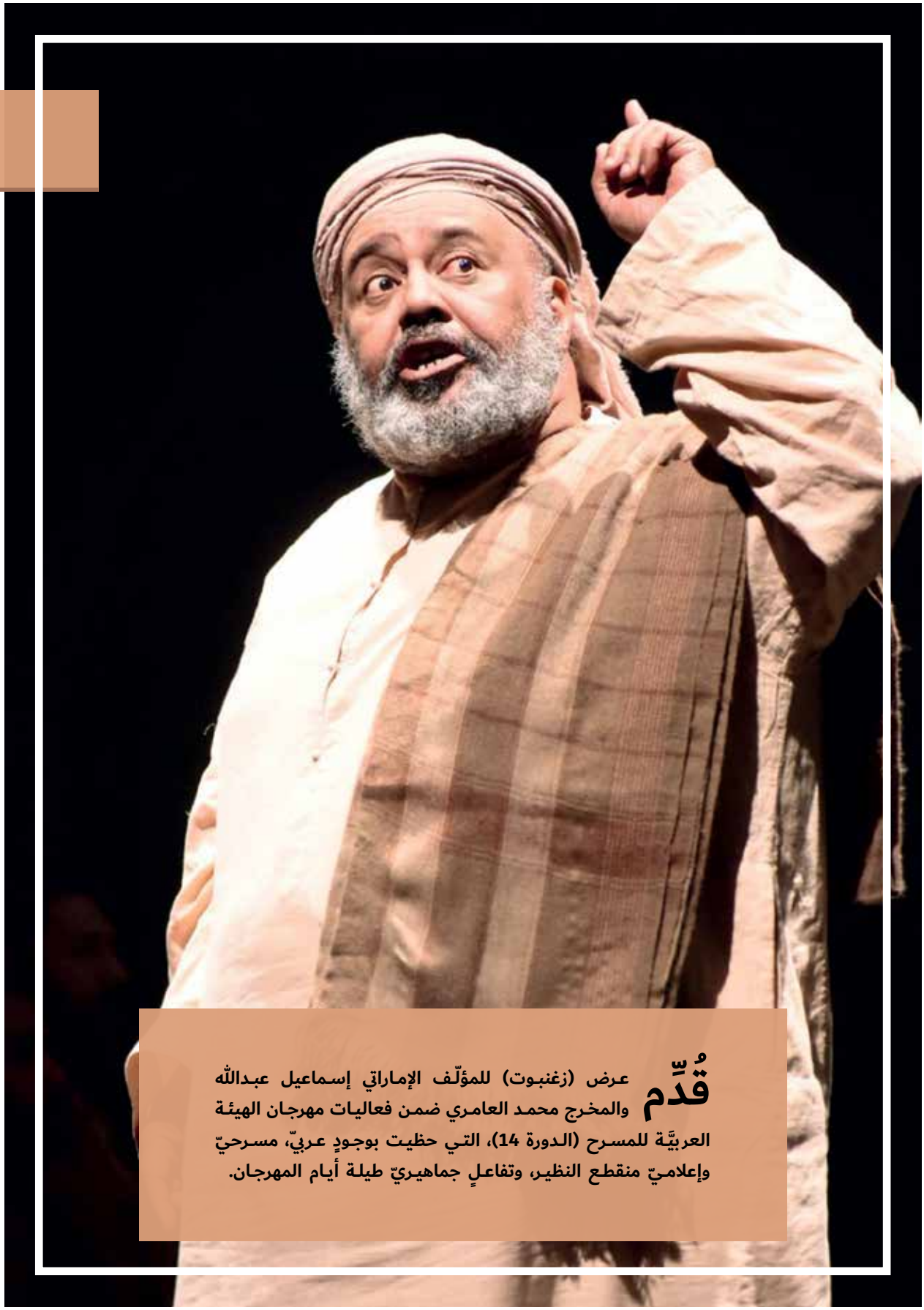

قُدِّم عرض (زغنبوت) للمؤلّف الإماراتي إسماعيل عبدالله والمخرج محمد العامري ضمن فعاليات مهرجان الهيئة العربيَّة للمسرح (الدورة 14)، التي حظيت بوجودٍ عربيّ، مسرحيّ وإعلاميّ منقطع النظير، وتفاعلٍ جماهيريّ طيلة أيام المهرجان.

انتصار المؤلف لفكرة المتشبث بأرضه ووطنه وثقافته

عرضُ (زغنبوت) المسرحيّ... ملحمةٌ شعبيَّةٌ عن الخليج العربيّ

د. عزة القصابي

تفرَّد عرضُ مسرحيَّة (زغنبوت) بهوَّيته الخليجيَّة، وناقش موضوعًا اجتماعيًّا وسياسيًّا لم يسبق التطرُّق له، مع محاولة استغلال التُّراث الشَّعبيّ. ويُعدُّ الكاتب إسماعيل عبدالله رائدًا في توظيف التُّراث الشَّعبيّ في المسرح الإماراتي، إذ ألَّف العديد من الأعمال المسرحيَّة المتأثرة بالتُّراث، والتي قُدِّمت برؤى عصريَّة قائمةٍ على الإسقاط العصري والتجديد في الأشكال المسرحيَّة، فضلًا على تأثُّره بالحكاية الشعبيَّة، وكذلك بمفردات البيئة التُّراثيَّة. ويُشكِّل المسرح التُّراثي المجبول على المعاصرة أهم مقومات الهُويَّة الخليجيَّة، وهو لا يخلو من تساؤلات قائمة على تناقض التُّراث أو الهُويَّة المحليَّة مع المسرح، وإشكالية توظيف هذا التُّراث للخروج بتجارب مسرحيَّة جديدة1.

واستُهِل عرضُ مسرحيَّة (زغنبوت) برقصاتٍ أدائيَّةٍ مُستوحاةٍ من التُّراث الشعبيّ، وفق رؤيةٍ راقصةٍ منظَّمةٍ جماليَّةٍ قُدِّمت عبر امتدادات الفضاء المسرحيّ، وتباينت مستويات الأداء الرَّاقص... مع توظيف الديكور الدَّال على البيئة والفقر والحرمان الذي كان الأهالي

1 بلال، محمد مبارك، المسرح العربي الخليجي وتوظيف التراث... التجربة الكويتية مع الإشارة إلى التجارب الخليجية البارزة، الكويت، ٢٠١٣م، ص٢٠٧

يعيشون فيه... كما استُخدمت الأصوات الناتجة عن طَرْق الأواني المعدنيَّة الخاصَّة بالطَّبخ، كمؤثراتٍ صوتيَّةٍ وموسيقيَّةٍ لتُصبِحَ من عناصر العمل المُقدَّم، كما أنَّها (الطناجر) تحمل دلالاتٍ رمزيَّة ترتبط بموضوع المسرحيَّة شكلًا ومضمونًا.

وقد توالت المشاهد المسرحيَّة التي تتحدَّث عن سنوات الظلام والجوع التي عاشها الإنسان الخليجيّ قبل الطفرات النفطيَّة، إضافةً إلى ارتباطها بالتَّاريخ البحريّ للمنطقة، وتأثرها بالشعوب المجاورة لها... وتُصوِّر الأحداث الصراع الدائر بين الشيخ (السُّلطة) ورجل الدِّين (المطوَّع) والأهالي عندما أتت فرصةٌ لإنقاذ الأهالي من المجاعة بسبب شُحّ الموارد الطبيعيَّة.. وكان الحل الأصعب بتزويج (بنت الفريج) للتاجر الآسيوي الهندوسي...! وتطوَّرت الأحداث لتصل لمرحلة صراع والد الفتاة مع الشيخ، وأنَّ الأب لا يقبل بزواج ابنته من هذا التاجر؛ لأنه غير مسلم!

من جانب آخر، تضمَّنت أحداث المسرحيَّة إسقاطات سياسيَّة وسيسولوجيَّة مرتبطة بعادات النَّاس التي تمتد جذورها إلى عمق المجتمعات الخليجيَّة القديمة، كما تضمَّنت الأحداث الكثير من الدَّلالات (الأنثروبولوجيَّة)؛ بهدف التواصل مع وجدان وفِكر وثقافة المتلقِّي، ومالت إلى التجريد والاختزال شكلًا ومضمونًا، الذي ينبثق من واقع المجتمع الخليجيّ الذي عاش عصورًا من الظلام، مرورًا بنكباتٍ عديدةٍ تباينت بين الحروب والجوع والأوبئة، وارتباطها بالبحر وساحله مترامي الأطراف على اعتبار أنَّه البوابة المُطلَّة على الآخر... حيث الخيرات والتِّجارة والمناخ الخصب والعيش باستقرارٍ وسلام.

ويُمكن رصد تمظهرات الفعل السياسيّ في النَّص من خلال قصّة الفتاة التي يرغب (الشيخ) بتزويجها للغريب/ المحتل/ من أجل تحقيق مصالحه الخاصة... بأسلوبٍ يحمل مدلولاتٍ سياسيَّة عميقة، تَصِف واقع التدخُّلات الخارجيَّة في الوطن ولجوء

الحُكَّام للغريب... وسرعان ما يتحوَّل هذا التدخُّل إلى واقعٍ مؤلمٍ؛ عندما يطمع الغريب ويسعى للسيطرة والتدخُّل في الشؤون الداخليَّة للبلد... والسَّعي إلى تغريب الناس عن فكرهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، ونشر أفكار التغيير في رؤى الأجيال المتعاقبة.

برزت في هذا العرض الشخصيَّات الرئيسيَّة مثل الشيخ ووالد الفتاة والمطوَّع (رجل الدِّين)، وهي شخصيَّات دفعت بالحدث نحو الأمام، وولَّدت صراعًا دراميًّا وتدافع الأحداث إلى الأمام من خلال تضاد الرؤى والأفكار في الأحداث المتوالية... وهذا جعل العرض يتحوَّل إلى ملحمةٍ تاريخيَّةٍ شعبيَّةٍ تتحدَّث عن البُعد السيسولوجي في الخليج العربي، وتعبِّر عن هويَّته والسَّنوات العجاف التي مرَّ بها... وتضمَّنت مشاهد بصريَّة لأحداثٍ مؤلمةٍ عن واقع الأهالي، ومن أمثلتها قيام (أب) بحَلقِ شعر ابنته لتقوم بالعمل شأنها شأن الرِّجال... والآخر وافق على أن تعمل زوجته كخادمةٍ في بيوت «الديرة»... بالطبع هذا في ظلّ تدنّي مستويات المعيشة... وأقلها عدم توفر الغذاء للمجتمع آنذاك.

حاكت السينوغرافيا البصريَّة الواقع وفق رؤى متعدِّدة شملت الفضاء المسرحيّ، وانقسمت المجاميع إلى فريقَيْن متحاورَيْن متوازيَيْن في الحركة والأداء التعبيريّ... واستُخدمت الكراسي الخشبيَّة في الأداء التمثيليّ والراقص... وسرعان ما جسَّدت هيئة (البوم)؛ وهي سُفُنٌ شراعيَّة كانت تُستخدم قديمًا، حيث ظهرت على امتداد الفضاء المسرحيّ لتصنع رؤيةً بصريَّةً أُفقيةً... وبذلك تعدَّدت استخدامات الكراسي (قطع الديكور)، مما جعلها تصبح جزءًا من الحدث، وتُضفي على العرض بُعدًا جماليًّا يتفاوت من مشهد لآخر.

كما أصبحت (هذه الكراسي الخشبيَّة) مكانًا لجلوس العريسَيْن عندما تحرَّكت نحو الخلف في عمق المسرح، وتحوَّلت إلى (طقسٍ هندوسيٍّ) تُقام خلاله طقوس الزواج، مع توظيف الموسيقى الآسيويَّة الدَّالَّة على الديانة الوثنيَّة والطقوس باستخدام الألوان والأصباغ، والتي تمَّ نثرها على وجوه الحاضرين في أثناء الرقص والأداء الفلكلوريّ الشعبيّ... بالإضافة إلى توظيف الأغاني والرَّقصات والمؤثرات والموسيقى التراثيَّة والشرقية... ورغم ذلك، فإن زواج الغريب (المحتل) لم ينجح!... وبقت الفتاة/ الأرض / الديرة لأهلها... وأنَّه مهما كانت الظروف إلا أنَّ الإنسان يظل ولاؤه

لوطنه ودينه وفكره وعاداته وتقاليده، ويمكن أن يكون درعًا قويَّة تصد القادم من العدوان وتدحض الأفكار الدخيلة.

جاء «الخطاب المسرحيّ" في هذا العرض مُدججًا برؤى اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ تعبّر عن الواقع المعاصر؛ ليتَّضح المستورد والأصيل، فهو قبل أن يكون مشروع احتلال أرض/ وطن... فإنَّه عبارة عن صراع الفِكر والمُعتَقد.. وجعله ذلك يتقارب (زغنبوت) الضار والذي يجب التخلُّص منه... وقام هذا العرض بالنبش في العناصر الدفينة عن تاريخ دول الخليج العربيَّة، والرَّحلات البحريَّة التِّجاريَّة، وكيف يُمكن أن تؤثِّر العلاقات التجاريَّة على خصوصيَّة المجتمع والبيئة الشعبيَّة الناطقة بروح النَّاس القاطنين في هذه البقعة من العالم.

تميَّز أداء الممثلين بالقدرة على التعايش مع شخصيَّات النَّص المسرحيّ، والتماهي مع مفرداتها الجماليَّة النَّابعة من البيئة الخليجيَّة القديمة والرَّقص الأدائي المستوحى من التُّراث الشعبيّ... حيث وُظِّف في العرض أكثر من فنٍّ تراثيٍّ في آنٍ واحد. وانقسم الاستعراضيون لمجموعاتٍ راقصةٍ حسب الموقف... وبرزت الرَّقصات التراثيَّة المستوحاة من التُّراث الإماراتي مما جعل العرض أقرب إلى ملحمةٍ شعبيَّةٍ، تجسِّد صراع البقاء للأقوى... والحرب ضد المحتل.

وفي النهاية انتصر المؤلِّف إسماعيل عبدالله لفكره المتشبِّث بأرضه ووطنه وثقافته...عندما رفض أنْ يكتمل مشروع زواج (بنت الديرة) المسلمة من وثني، لتبقى درَّة أصيلة!... لا ينال منها المعتدي/ المحتل، والتأكيد على أهمِّيَّة ابتعاد المجتمع ورفضه للتأثيرات الثقافيَّة الضَّارَّة (زغنبوت)، والتي يمكن أنْ تطالهم بفعل الانفتاح الثقافيّ والفكريّ على المنطقة... والاكتفاء بالتواصل مع الغريب في إطار العلاقات التجاريَّة لا غير!